كيف تعلم الأخلاق

من وقت لآخر تعلو صيحة الكتاب ناعية إلينا أخلاق الشبان أو محذرة من شر انحطاطها وتزعزعها . ثم يتجه النقد نحو المدارس لأنها تهمل تعليم الأخلاق . ولكن هؤلاء الصائحين ينسون أن الأمة لا يمكنها أن تحصل من الفرد على أكثر مما تستحق من الأخلاق . إذ الفرد يكتسب هذه الأخلاق من بيئتها الاجتماعية ، و يصطنع مقاييسها فى تمييز الفضائل والرذائل كما ينسون أن المدرسة تعلم ولا تربى . وأن مكان التربية هو البيت . والأخلاق لا يمكن أن تكون إلا ثمرة التربية فى البيت أولا والمجتمع ثانيا .

ونحتاج لكى نفهم هذا الموضوع أن نرجع إلى قليل من علم طبائع النفوس ، فان الحيوان يسلك سلوكا قائما على الغرائز وحدها . ونحن نسلك سلوكا قائما على الميول . والغرائز محدودة قد جعلها مكدوجال السيكلوجى الانجليزى المعروف أربع عشرة . أما الميول فلا حصر لها لأنها تتركب من الغرائز . وللإيضاح نقول إن فى الحيوان غريزة جنسية . وهى غريزة عارية تقوم على اشتهاء الجنس الآخر لا أكثر . أما الانسان — ونعنى هنا الانسان المتمدن — فله ميل جنسى مؤلف من جملة غرائز ليست الغريزة الجنسية إلا واحدة منها . فالحيوان يطلب الأنثى . ولكن الانسان بما تكون فيه من ميل جنسى يطلب جملة أشياء الى جنب الأنوثة . فان الإعجاب بالمرأة عند الرجل المتمدن لا يقتصر على أنها أنثى بل هو يتجاوز هذا الاعتبار الى أنها تمتاز بذوق خاص فى هندامها وإلى مكان أسرتها ودرجة ثقافتها وعاداتها ولهجة حديثها وديانتها . وكل هذه الاعتبارات تندمج فى ما نسميه " ميلا " جنسيا . وكذلك الشأن فى الطعام . فان الحيوان يعتمد على غريزة الجوع فيطلب ما يشبعه من أى طعام . ولكن الانسان المتمدن ينتقد المائدة والألوان . وذلك لأن الميول تتألف من الوسط الاجتماعى . فنحن لا نعيش فى المجتمع بغرائزنا و إنما بميولنا . ولو كان أحدنا يعيش منفردا فى صحراء أو غابة لقنع بغرائزه . وعندئذ لا نجد معنى أو مغزى للأخلاق هنا . لأن الأخلاق هى نتيجة

المعيشة الاجتماعية . ولا معنى بتاتا للصدق أو الكذب أو الغدر أو الوفاء أو الشرف أو الأمانة إذا كان الانسان منفردا . وإنما هو يتحلى بهذه الفضائل أو يتجنب هذه الرذائل لأن المجتمع الذى يعيش فيه قد غرسها فيه . وجميع هذه الفضائل هى ميول كل ميل منها مؤلف من غرائز . والميل هو فى النهاية " عادة كامنة " أى أنه يحتاج الى الممارسة والتكرار . وهو لا يعلم ولا يلقن .

والأخلاق تختلف بين أمة وأخرى ، لأن المجتمع يختلف . بل هى تختلف بين بيئة وأخرى فى الأمة نفسها كما نرى مثلا فى هذا الأختلاف القائم بين الريفيين فى مديرية قنا عن فكرة العرض ، و بين الريفيين فى بعض الأقاليم بالوجه البحرى . كما نرى الاختلاف عن هذه الفكرة أيضا بين المصريين والأمريكيين . وذلك الذى يكسبنا شخصية و يميز بين واحد وآخر هو الميول وليست الغرائز ، فاننا جميعا سواء من حيث الغرائز ولكنا نختلف من حيث الميول .

ولا نستطيع أن نقول إن للحيوان شخصية ، إذ هو يعيش على جهاز الغرائز و يتقلب بتقلبها لأن الغريزة وحدة منفصلة يستجيب لها الجسم بنعم أو لا . ولكن الميل الذى يؤلف من جملة الغرائز لا يستجيب له الجسم بمثل هذا الجسم . فالرجل الذى تكونت أخلاقه وتألفت شخصيته تضطره ميوله الى التريث والتأمل والتدبر . لأن فى نفسه جملة غرائز مختلفة بل متضاربة . فهو يقدر ويدبر . ولكن ذلك الذى لم تتكون أخلاقه ولم يتم له بناء شخصيته يسارع الى الرأى ، و يبادر الى العمل ، لأن ميوله قليلة وغرائزه هى التى توجهه .

ومهمة الأخلاق هى مهمة اجتماعية تكاد تناقض الطبيعة ، لأننا نطالب الفرد بألا يعتمد على غرائزه كالحيوان أو كالانسان المنفرد فى صحراء أو غابة ، بل نحن نغرس فيه ميولا تجعله أبطأ فى الحكم يوازن بين غرائزه قبل أن يقرر السلوك الذى يتخذ . فالغريزة تقول للطفل : إذا رأيت طعاما وكنت جائعا فكل لا تبال . ولكن الأخلاق تقول : إذا رأيت طعاما وكنت جائعا فلا تأكل إلا بعد أن تعرف أنه طعامك ، و بعد أن تثق بأنه طعام حسن نظيف تثق بالذى طهاه . وإياك أن تلوث ملابسك وأنت تأكل . ثم اغسل يديك بعد الطعام الخ : ففى الحال الأولى نجد غريزة . وفى الحال الثانية نجد ميولا اجتماعية .

فاذا شئنا أن نعلم الأخلاق الفاضلة لأبنائنا فيجب قبل كل شىء أن نوجدهم فى المجتمع الفاضل . والمدرسة انما تعلم أبناءنا مواد ثقافية مثل الجغرافيا والتاريخ والكيمياء ولا علاقة لهذه الاشياء بالأخلاق . لأن الأخلاق هى المعاملة والسلوك والاتجاه الاجتماعى . وكل هذا يكتسب من الأسرة والمجتمع . بل لقد قال أحد المربين إن الصبى يتعلم فى الشارع بين بيته ومدرسته من الأخلاق أكثر مما يتعلم فى المدرسة نفسها .

وربما لم يكن مبالغا فى هذا القول . فان الصبى يرى المشاجرة تنشب أمامه فى الشارع وهى أسلوب من السلوك يتأثر منه ويرى فيه الظافر والمنهزم ، وهو يشترى الحلوى ويجد من التجار ملاطفة أو جفوة أو غشا أو نزاهة ، فيتأثر كذلك ، وهو يلعب مع الصبيان فيعجب بجراءة هذا ويحتقر جبانة ذاك ، وهذه هى البيئة التى يتعلم منها بعض أخلاقه .

فاذا شئنا أن نعلم أولادنا الأخلاق فيجب قبل كل شىء أن نذكر أن البيت هو البيئة الأولى التى يكتسب منها أسلوبه فى السلوك . فاذا لم تكن فى هذا البيت أخلاق فاضلة فثق أن الطفل قد فقد ثلاثة أرباع المعركة الأخلاقية . وأن استرداده لما فقد ، قد يكون فى حكم المستحيل بعد ذلك . لأن تغيير هذه الأخلاق شاق جدا . والطفل فى بيئته العائلية يأخذ الأخلاق عن والديه وأخواته والخدم والزائرين . وحظ الأم هنا يساوى حظ جميع الآخرين إن لم يزد عليهم . وهو يتأثر بكل ما يحدث فى البيت ، لأن نفسه لا تزال بكرا تقبل النقش الذى لا يمحى فى المستقبل . وهو يتعلم الأخلاق هنا بأنجع الطرق لتعليمها وهو القدوة ، وهو يقتدى بأمه وأبيه وإخوته . وأحيانا نجد هذه القدوة واضحة فى ايماءة اليد وحركة الوجه ونغمة الصوت . فيجب أن ندرك من هذه الدقة فى أثر القدوة أن الصبى يتخلق بالأخلاق الفاشية فى هذا البيت .

والبيت هو المجتمع الصغير . ثم هناك المجتمع الكبير خارج البيت . وهو عند الطفل ثم الصبى ثم الشاب لا يعدو أن يكون الشارع الذى يسير أو يلعب فيه . وهو الصبيان والرفقاء الذين يسايرهم أو يلاعبهم فى المدرسة . وهو القهوة أو النادى . وهو رفقاء المدرسة وزملاء العمل . وهو الجريدة أو المجلة التى يقرأ . وهو الدين . وهو الثقافة العامة . فان لكل هذا أثره فى تكوين ميوله التى تتألف منها بعد ذلك شخصيته . ولكن كل هذه الأشياء لا توازن فى القيمة أثر الأسرة .

ولذلك من العبث أن نطالب المدرسة بتعليم الأخلاق . إذ لا يمكن مدرس الجغرافيا أن يتحدث عن قيمة الصدق والشرف . ثم هو لو تحدث لكان كلامه نظريا . ولكن البيت هو الذى يعلم الأطفال الصدق بالقدوة والمعاملة والتجربة . وقد يمكن المدرسة أن تساعد على إيجاد الأخلاق الفاضلة . بتأليف الفرق الرياضية أو التمثيلية . لأن الصبى هنا يدرك معنى التعاون ويمارس — وهذا هو الأهم — هذا التعاون . وذلك لأن سلوكه فى فرقة الكرة أو فرقة التمثيل يتجه نحو نجاح الجماعة وليس نحو نجاحه الذاتى .

ولكن أثر العائلة لا يمكن أن يساويه أى أثر آخر . وصحيح إن هناك من استطاعوا أن يتجردوا من الآثار السيئة العائلية . ولكن قلتهم تجعلهم فى مستوى العبقريين الذين يخرجون عن حسابنا .